النتاج الجديد

خطوات في ليل الفجر

مجموعة قصصية لمي مظفر

في مجتمع مختنق بكراهيات اسطورية وجو تنز فيه الاحقاد وتهرب منه مشاعر العطف ، حيث تنفرز الظلمات على جسد الارض كوحوش مخلوعة العيون قرونا طوالا ، في هذا الاطار المنكفىء على فراغات اللاجدوى حين يظهر بين الحين والحين صوت مكترث نبدأ معه بتهجي ابجدية التعاطف من جديد بعد ان نكون موغلين في مجاهل الغربة الانسانية ، هذه المجموعة تتواصل مع الهلع المقيم في محاولة لنقضه واحلال ومضات قربى بشرية بين الناس .

نحن في كل شيء تقريبا نبدأ من النهاية لان البداية مسؤولية والنهاية ارتفاع عن المسؤولية . وفي الفكر والفنون بعامة نستسهل نهاية المطاف قبل بدء الرحلة ، فمجال الشعوذة في الفن ايسر من امكانية الشعوذة في تصليح باب او صنع كرسي حيث لا تكون البداية هناك الا معاناة للفعل ولا تكون النهاية الا انجازا حقيقيا . وهذه القصص معالجة لمفهوم البداية في اكثر من معنى ، فهي بداية منبثة عن انجاز ، وهي تتطلع الى الابانة عن وجدان حي عميق في اساه وفرحه . تمازج الصدق والشاعرية في هذه القصص لا يكاد يتوارى عن البصر وهو في كثير من المواضع يرتفع الى التعبير عن حنين ضمار متوحد يمزقه التوق الى ازالة استار الغربة عن وجه المرآة هنا وفي هذه الحقبة . اويكون هذا شيئا مما يسمى بالادب النسوي ؟ ولكن هل اذا كان الادب معنيا بالفهم الصدوق لتجربة المرأة بوصفها امرأة يكون بالضرورة متصلا بزمان موقوت يعبره الزمان الدائم ؟ لسنا حكاما على الاجيال التي تأتي فيما تود ان تقرأ من اعمال جيلنا ، وكل ما يعنينا هو ان كاتبة تحرّت الوضع البشري في زماننا وكشفت عن جانب من وعي المرأة فيه فاحسنت نسج هذا الوعي في قصص ملتاعة أغدق خلالها حنوّ متفجر العطاء .

ما المرأة في اطارها الشرقي بازاء الرجل ؟ تبدو لي هي ما كان عليه الانسان عموما في نظر باسكال ، اي (عدم ازاء اللامتناهي وكل ازاء العدم) واللامتناهي والعدم هنا هو هذا الرجل الشرقي الذي يصدها عن حق المواطنة في مواضع خطاه والمشاركة في ميادين رؤاه، وهو في الوقت نفسه يملأ بها نفسه في اثناء جوعه المترامي الاطراف اليها سادا عليه آفاق التحرك المتحرر منها كمشكلة . ولولا جهل الرجل الشرقي للمرأة وابتعاده عنها لكان استطاع ان يشغل بغيرها من امور مصيرية . انها تلاحقه في ضعفها فهي ما يستحي منه ، وهي ما يذود عنه ، وهي ما يتصوره عنوان شرفه ، ولكنها في النهاية لا شيء ، لان قيمتها ، في حياة او موت ، هو الذي يضعها ، هذا الطاغية الذي لا يعرف من الاخلاق سوى العيب ، والعيب اللصيق بحيثية المرأة ، ولا يعرف من القوانين سوى المحرمات .

الادب النسوي اسطورة ولكنها اسطورة واقعية . اية مستنقعات آسنة نخوضها المرأة في سبيل الوصول الى حقيقتها بواسطة ادب يسعى للابانة عن قضايا اساسية هي من العنف بحيث تتخذ شكلا لا واقعيا وهي من الحياء بحيث تجول في نطاق ما لا يعبر منه ، والنتيجة تكون بالضرورة ضربا من العي في التعبير ويكون تجاوزه كما تجاوزته هذه المجموعة ضربا من ابداع يثير الاعجاب . اية حاجة للمرأة في غير هذه الصحراء المحاصرة بليلها الى انخاذ هذه الصيغ الرمزية السرية لتعبر عن جذل نهارات مشعة وتعرض وجهها بعض التعريض لرياح تهب بحرية على وجوه الخلق في كل مكان ؟

تطرح في هذه المجموعة من قصص الشجن اسئلة بشأن الطريق المفتوح التي تتخذ رمز ينابيع النور ، ومي مظفر حين تجد ان الطرق تؤدي الى انغلاقاتها الحزينة وان السماوات سماء واحدة مطرها قليل كالدموع وشمسها المباشرة الكاوية مذلة للعيون ، تحاول مع ذلك أن تتعرف على معنى التوقع الايجابي ، حتى اذا كان ذلك على شكل ابله يرقد على تراب الارض (امه التي توليه حنانا) ، اما في قصة (خطوات في ليل الفجر) فالانتظار يبلغ عنفوانه في الحنو والمشاركة ، فهناك امرأة تراقب بارتجاف ودود تحركات الرجل في عوالم انتماءاته المصيرية وخلال صمتها الكريم تهبه اكثر من سبب لاحتضان البطولة .

في هذه القصص المشبعة بالتعاطف يرتد الشعور المتمرّز على ذاته كأنه الموجة ، فلا عجب ان نرى هذه المجموعة تبدأ بباب مغلق وتنتهي بتوحشات محطة ونقرأ بين الاثنين مسعى مريدا على انعدام الجدوى مع حذق خاص في انطاق الافعال الانسانية البسيطة المنكفئة شعرا وفهما مما يذكر المرء بشيخوف ، نجد هذا في قصة (الجريدة) وقصة (ورقة انذار المصلحة) . وهذه المشاركة الانسانية تنال معالجة رقيقة في قصة (من وراء الجدران) اذ تحمل اكثر من كل قصص المجموعة جوا بغداديا مصورا بسخريه دافئة . ليس في هذه القصة تطلعات رمزية ذات امتداد قد يكون باهتا اذا انفلت بلا قيود ولكن فيها بساطة وملموسية حية .

(حين ينطق الصمت) تتحدث بغريزة حاذقة عن مستويين من العلاقات الانسانية هما مستوى المتحدثة التي يهبها فقدانها لـ(فارس) هوسا بعالم صدق مفقود ، ومستوى الاخرين الذين يحيون كيفما اتفق . انها قصة ذات ابعاد تنحو منحى التصوير القوي الذي يبقيه متماسكا ما فيه من اسى . واذا كانت هذه القصة تتلمس عمق الفقدان في الموت فان قصة (اللحظات القلقة) تنطلق الى عمق اخر هو عمق قلق الفقدان . انها تسجيل استبطاني لتخلخلات روح ودودة تمرد على ثبات المودة فيها .

الكتابة المتحركة كتابة لا علاقة لها بعالم الجثة ، فهي سفرة الى جحيم ما ، ذلك لانها تسعى لاستكشاف طبقات القلق والترقب والخيبة وحتى حين تصل في تطوافها المتوتر الى اراضي الفرح ، فان الارادة الانسانية تؤكد نفسها تجاه ارادات اخرى وليس في الجثة الموءودة ارادة تصطدم بارادات او تنطلق في اتجاه تكون احدى احتمالاته الخيبة . من دون التوقع والترقب ومن دون حياة تلمع فيها الارادة وتخبو وتؤكد ذاتها من جديد لا يكون الواقع الانساني اكثر من سكونية نباتية وهي سكونية عالم الجثة الذي فيه من اشباع الرغبات ما يضع لها نهاياتها . ما افجع سكونية القصة اذا لم تكن دراسة للحظة قلقة في كتاب الحياة الطويل !

ليس في المجموعة ما يشير الى الرضى الملتاع اكثر من قصة (البهلوان) حيث تكون المرأة فيها نهاية مطاف الرجل بعد ان تكون حياته قد اصبحت شظايا . في هذه القصة تتحول الخيبة الى طاقة ايجابية .

وفي (الجثة) ملامح بناء قصصي يزداد قوة مع مسيرة القصة. اما نهايتها الكافكائية فتنبىء عن قدرة في التطوير جيدة .

ليست كل مجموعات القصاصين الاولى في مستوى هذه المجموعة من حيث الاتقان ، وما يتيح للقارىء ان يتفاءل ان هذه الاندلاعات الحية المتطورة في ثنايا هذا الكتاب نفسه تشير الى امكانيات في القدرة ستمكن الكاتبة دون شك من ان تسلك سلوكا اكثر حيطة بازاء التعابير المغناة لتكون هيمنتها على نسيج القصة ابعد واشمل . وان نتاجها الذي يلي هذه المجموعة والذي سيطبع بعدها في كتاب يشير بوضوح الى انها تعرف السبيل الى تجويد فنها من

حيث الاسلوب والتعمق فيما وراء الوان الحزن الرومانسي الذي يشل الاستسلام اليه احيانا حذق العين التي ترى واليد التي تكتب والعقل المهيمن عليهما .

«خطوات في ليل الفجر» انما هي مسيرة واعية في فجر كاتبة سيكون نهارها مشمسا ما دام احساسها بمسؤوليتها تجاه فنها على مثل هذه الدرجة من الحدة .

بغداد — **نجيب المانع**

★★★

نقطة نظام

مجموعة قصصية لمحمد الصباغ

الاقصوصة في المغرب عرفت اقلاما عالجتها بكل عفوية ودراية ، فبعد اول مجموعة صدرت لرفيقة الطبيعة (رجل وامرأة) تأتي مجموعة جديدة وأول باكورة قصصية لمحمد الصباغ وعنوانها (نقطة نظام) .

ومحمد الصباغ كاتب معروف سبق ان نشر سلسلة طويلة من الكتب ذات (العبير الملتهب (١) و(اللهات الجريح) والتي شبهها الكثيرون بانها (شموع على الطريق) (لأهل مدينة فاضله) كلماتها منتزعه من (شجرة النار) المحرقة متدفقه من (قوارة الظمأ) (كعنقد ندي) .

واذا كانت كتابات محمد الصباغ السابقة تمتاز بالخيال الخصب الجامح ، وبالكلمة المذهبة الطائرة ، وهي مغرقة في الرومنطقية المحالة فان مجموعته القصصية (نقطة نظام) لا تخلو من عذوبة اللفظ ، واشراق الفجر ، لكنها على العكس من ذلك تحمل ملامح الفجيعة في صمت ، وتعكس بقوة ضراوة الصراع الذي يخوضه الانسان في العالم الثالث في اصرار وتحد .

ان اسلوب محمد الصباغ في هذه المجموعة اسلوب ساخر متهكم، اسلوب القصاص الذي يريد ان يقول كل شيء ولكنه يتكيء على الصور والاستعارات في البوح . ولقد صدق مخائيل نعيمة حين قال عن محمد الصباغ بأن كتاباته القصصية (مبطنة بالتهكم اللاذع على سخافات الناس وتفاهتهم ، ولكنه تهكم مبطن بكثير من الحزن والشعفة والاحساس العميق بقيمة الانسان مهما يكن شأنه بين الناس) .

ان هذه الشفقة وذلك الحزن هما غلاف المجموعة ، وبالتالي هما الاصبع التي ارتفعت في احتجاج بحثا عن الحق ، والعدل ، والشمس.

اما ابطال (نقطة نظام) فهم دائما ذوو اهتمامات معينة ، فعبد الكريم بطل اقصوصة (البيغاء) وهي اول اقصوصة في المجموعه انسان ثري يعيش في قصر فخم هو وزوجته وخادمة ورثها عن ابيه وبمعيتهم ببغاء ، وبما ان عبد الكريم يهتم بما يجري من احداث في العالم العربي فانه يخوض في احاديث سياسية مختلفة مع اصدقائه وذويه ، ومن ثم فان المناقشات التي يرددها الرجل يرددها البيغاء ايضا وهذا ما دفع في النهاية اصدقاء عبد الكريم وهو صحفي اجنبي بان يكتب في الجريدة التي يديرها : بأن فلسطين للعرب ، وبأن البيغوات ايضا تطالب بها .

أن حشر (البيغاء) ضمن قضية مصيرية وداخل مجموعة بشرية لم يأت عفوا وانما تعمد القاص ذلك حتى يبين بسخرية لاذعة الى اي مدى وصل امر القضية العربية .

بعد (البيغاء) تأتي اقصوصة (الاقنعة) ولعلها التي تعكس سخرية محمد الصباغ في اعلى مستوياتها فأبطالها متعددون ، وهم ضحايا اشياء كثيرة ، فالزوجان ضحية سوء تفاهم يحدث في اخر لحظة وهما يهمان بالخروج من البيت الى المسرح ، والشاب ضحية الداء الذي القى به الى الارض فاذا هو على السرير يعاني الالم والحرمان ، في حين يرفع الستار في المسرح بدون ان يتمهل حتى (تستأصل الزائدة) لدى المريض ، انها تجربة الفرد داخل مجتمع بلا فرأمل . هنالك ايضا البائعة التي تجلس في أحد المقاعد الثلاثة الفارغة ، وهنالك الطفلة التي تلتهم (الشكولاتة) بعينيها الجائعتين بدون ان تستطيع الحصول عليها ، وأخيرا بائع الاقنعة الذي يبيع المشاعر والوجوه والذي وجد عدة زبناء دفعتهم مواقف الحياة الى استعارة وجوه اخرى لمقابلة رئيس او وزير او مسؤول .

وهكذا نخرج من هذا الزحام المرير شاعرين بكثير من الوجع والشفقة ، مقتنعين بأن الاشياء البسيطة جدا هي سبب آلامنا وعذاباتنا وفشلنا احيانا . ان الزيف الذي اصبح يصبغ وجه المجتمع هو الذي جعل محمد الصباغ يصرخ : (الحياة يعوزها تعدد الوجوه، الوجوه في متناول الجميع) .

ان محمد الصباغ يعتمد على الوصف اكثر مما يعتمد على التركيز على الفكرة ، وهذا نجده في كل كتاباته تقريبا ، لا لان نظرته الى الحياة والناس ، والاشياء قاصرة ، ولكن لانه شاعر يطربه الكلمة ويستبد به النغم فينساق وراءهما .

بعد ذلك تأتي اقصوصة (نقطة نظام) وهي التي تحمل المجموعة اسمها ... والاقصوصة صوت اللاعدالة على الارض ، وصرخة الذي نفته الحياة الى ارض الاحزان والهزيمة ، والحاجة ، وحين تقول بطلة الاقصوصة (... نقطة نظام) رافعة وجهها الى السماء فانما تعبر عن ثورة الفرد واستياءه من وضع رجعي يلوثه ، ولا يكفل له عدالة اجتماعية ، ولا يعبر عن مطامحه وآماله . ان ابطال (نقطة نظام) يمثلون الوجه الاخر من مجتمع لا يعرف سوى لغة (البقشيش) وحين تنعدم هذه اللغة يموت كل شيء . وفي المجموعة قصص اخرى رائعة تصور قدر الانسان المغربي وهو يجتاز اصعب مرحلة في حياته .

١ ـ الجمل التي توجد داخل اقواس عناوين كتب للمؤلف

٢ ـ المقدمة بقلم ناسك الشخروب الاستاذ ميخائيل نعيمة

الرباط ـ المغرب ـ **ادريس الزمراني**

صدر حديثا :

ـ دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية
صادق جلال العظم
ـ ثلاث سنوات
احمد بهاء الدين
ـ مناقشات حول القضية الفلسطينية
ـ وثائق جمعها ناجي علوش
ـ الثورة الفلسطينية ابعادها وقضاياها
ناجي علوش
ـ البؤرة الثورية
مناقشة « ثورة في الثورة »
ـ المقاومة الفلسطينية
جيرار شاليان
ـ المقاومة العربية في فلسطين
ناجي علوش
ـ الحرب الثورية في فيتنام
غابرييل بونيه
ـ المفهوم المادي للمسألة اليهودية
ابراهام ليون
ـ علم الاجتماع الماركسي
كونستانتينوف وكيل

دار الطليعة للطباعة والنشر

ص.ب ١٨١٣ بيروت